

تراكم الحنفايش ! عبدالكريم العفيدلي



عندما كنا أطفالاً صغاراً كانت أمهاتنا تحكي لنا قصصاً خرافيةً عن (الحنفايش) المتوحش الذي سيأتي ويخطفنا إن بقينا مستيقظين ، فنخلد للنوم ونحن نتخيل هذا الكائن المرعب واقفاً على إحدى النوافذ نخشى إنقضاضه علينا .

عندما كبرنا أيقنا أن هذا الحنفايش ليس بخرافة وهو ينقض ليفترس الأعمار والأمنيات دون أن يفرق بين ضحاياه ، فتحتضن الأمهات أطفالهن وكأنهن يتوسلن به لا تفترس أطفالنا وتتركنا أيها " الحنفايش " ، لم يبق شيء يستحق أن نبقى لأجله !

فقد سد هذا الحنفايش كل نوافذ الحياة ، ولم يبق إلا نافذة واحدة دخل منها إلينا بصورة أشنع مما تخيلناه عندما كنا صغاراً، ودون سابق إنذار جاء خاطفاً مرعباً فتتزاخم الأسئلة المرعبة كصورته في أذهاننا ونحن نشاهد مناظر الأمهات والأطفال والكهول أشلاء متناثرة ومشوهة وطفلة تحمي رأس أخيها وهما تحت الأنقاض ومن لا يسمع إلا صوته المخنوق فيتلأشى رويداً رويداً حتى يختفي نبضه بظل العجز عن إيصال بصيص أمل له يدفعه للمقاومة ، ومن هو قد استقبل الحنفايش مبتسماً ليقول له لا أخشاك أيها الجبان فأنت لاتخيفني !

يرحل الليل المرعب ويأتي الصباح حزيناً دائماً لتتكشف أكثر حجم المأساة التي خطفنا أرواح عوائلنا بأكملها وتركت أجسادها ممزقة تحت أنقاض مساكنهم ، فلا تكاد تغلق محطة أو صفحة على مواقع التواصل إلا ترى بها مايدمي القلب ويدمع العين ويخرج الدنيا من عينيك غير آسفة عليها... ولولا التسليم بالقدر لأدخلتك الأسئلة المتزاخمة فيما لا يحمد عقباه..

مالذي فعله هذا الحنفايش بنا ؟ ، كيف باغتتنا ونحن نيام ؟ ، ألا يوجد غيرنا في هذا العالم ؟!

لماذا لم يذهب لغيرنا من المرفهين حولنا ، هل هو يعشقنا لهذا الحد الذي يقتلنا به ؟!

هي ليست مشاهد في فلم سينمائي بهوليوود بل هي مشاهد حية كشفت حجم الألم والوجه المأساوي لهذه الفاجعة المباغتة ، ثوان معدودة قلبت وجه المنطقة وحولت مسار الأحداث فيها وتصدرت نشرات الأخبار ، وكان هذه الهزة الأرضية جاءت لتوقظ ما بقي من الضمائر الحية وتلفت الأنظار لمأساة شعبٍ أن لها أن تنتهي.

بين هذا وذاك يتعقد المشهد أمامنا ونحن نرى الكيل بمكيالين وتعامل العالم المجرم بمستويين مختلفين مع شعبين تعرضوا لذات الكارثة ، شعب قتله العالم قبل أن تقتله الكارثة وشعب رغم أمننا عليه وماحل به لديه مالدبه ليواجه هذه الكارثة غير منهك ولا خائر القوى ، لتسقط أقنعة المتشرفين بمعاني الإنسانية وتظهر وجوههم القبيحة بمجرد استغلال الأمر سياسياً على المنابر الدولية ، وتصريحات من هنا وهناك وجسور جوية وفرق إنقاذ وقوافل مساعدات وتبرعات سخية لتحط رحالها كلها بالجانب الآخر وكأنهم اعتادوا على أوجاعنا وألمنا فأدروا ظهورهم لنا ، وتزداد النكبة والشتات والتشرد والجوع والدموع ... والحصار !

وكان كل الطرق المؤدية إلى الحياة أصبحت غير سالكة بوجه السوريين بسبب تراكم الحنفايش ؟!

وكان موتنا السوري لطول سكراته أصبح جرحاً بارداً في اليتيم كما يصفه " منير خلف " في بيتٍ عندما تقرأه تشعر بالقشعريرة لكمية الوجع المسكوب ودقة تصوير المشهد :

موئنا السُّوريُّ جرحاً قد غدا
بارداً في اليَتيمِ معصوب الأب

سنجمع شتاتنا تحت قسوة الظروف وبإمكاناتنا المتواضعة وبأيدينا العارية سنزيل كل هذا اليأس ، وسننهض مثل طائر الفينيق من تحت الرماد !.

عبدالكريم العفيدلي

* الحنفايش : كائن خرافي مخيف وضخم يرد في القصص الشعبي بوادي الفرات والجزيرة السورية .